معجزات الأنبياء بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية
دراسة قرآنية في أسباب عدم استجابة المكذبين للآيات

The Miracles of the Prophets Between Establishing Proof and Guiding to the Truth -A Qur'anic Study of the Reasons for the Disbelievers' Rejection of the Divine Signs-

10.35781/1637-000-190-001

د. حسن بن ناجع العجمي*

*استاذ مشارك بجامعة تبوك

الملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان الوظيفة القرآنية لمعجزات الأنبياء، والكشف عن العلاقة بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية، من خلال دراسة تفسيرية موضوعية لأسباب عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء في القرآن الكريم. واعتمد البحث المنهج الاستقرائي في جمع الآيات المتعلقة بالموضوع، والمنهج التحليلي في دراسة دلالاتها في ضوء السياق القرآني وأقوال المفسرين، مع الإفادة من منهج التفسير الموضوعي في الربط بين الآيات واستنباط السنن القرآنية الحاكمة لهذه القضية. ويشتمل هذا البحث على مقدمة وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وجاء المبحث الأول بعنوان أسباب عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء، والثاني: وسائل القرآن في إقامة الحجة وتحقيق الهداية بالمعجزات ثم الخاتمة، وقد خلصت الدراسة إلى أن المعجزات لم تكن في التصور القرآني مجرد خوارق حسية لإثبات صدق الرسل، وإنما جاءت ضمن منهج رباني متكامل يجمع بين إقامة الحجة وفتح أبواب الهداية، ويراعي طبيعة الإنسان واستعداده النفسي والعقلي لقبول الحق. كما بينت أن عدم استجابة المكذبين لم يكن ناشئًا عن ضعف الدليل أو غموض البرهان، وإنما عن عوائق داخلية تمثلت في الجهل، والحسد، والاستكبار، والتقليد الأعمى، والخوف على الجاه والمصالح، وهي أسباب تكررت في مواقف الأمم مع رسلها. وأوضحت الدراسة أن القرآن الكريم اعتمد التدرج في إقامة الحجة، وجمع بين مخاطبة العقل بالبرهان والقلب بالموعظة، بما يعكس تكامل المنهج القرآني في بناء الإيمان، ويؤكد أن الهداية لا تتحقق بمجرد مشاهدة الآيات، وإنما باستعداد النفس لقبول الحق والاستجابة له.

الكلمات المفتاحية: معجزات الأنبياء، إقامة الحجة، الهداية، التفسير الموضوعي، أسباب التكذيب، السنن القرآنية.

ISSN : 2410-1818

The Miracles of the Prophets Between Establishing Proof and Guiding to the Truth A Qur'anic Study of the Reasons for the Disbelievers' Rejection of the Divine Signs

Dr. Hassan bin Naji Al-Ajmi*

*Associate Professor at the University of Tabuk

Abstract

This study examines the Qur'anic function of the miracles of the Prophets and explores the relationship between establishing divine proof and achieving guidance through a thematic exegetical analysis of the reasons behind the disbelievers' rejection of prophetic miracles in the Qur'an. The research employs an inductive approach to collect the relevant Qur'anic verses and an analytical method to examine their meanings in light of their contexts and the interpretations of classical exegetes, while applying the thematic method of Qur'anic exegesis to identify the governing Qur'anic principles. The study concludes that prophetic miracles were not presented merely as supernatural events intended to prove the authenticity of prophethood; rather, they formed part of a comprehensive divine methodology aimed at establishing proof and opening the way to guidance. It further demonstrates that the rejection of miracles was not caused by insufficient evidence, but by internal barriers such as ignorance, arrogance, envy, blind imitation, and attachment to worldly status and interests. The study also reveals that the Qur'an establishes proof through a gradual approach that integrates rational argument with spiritual and moral appeal, thereby emphasizing that true guidance depends not only on witnessing miraculous signs but also on the human willingness to accept and respond to the truth.

Keywords: Prophetic Miracles; Establishing Divine Proof; Guidance; Thematic Qur'anic Exegesis; Reasons for Rejection; Qur'anic Principles.

ISSN : 2410-1818

المقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن الكريم هدىً للناس وأقام به الحجة على العالمين، وأيد رسله بالمعجزات الدالة على صدق رسالاتهم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي أيده الله بالمعجزة الخالدة التي لا تنقضي عجائبها ولا تنتهي فوائده إلى يوم الدين، أما بعد...

فإن موضوع معجزات الأنبياء إحدى المحاور الكبرى في الخطاب القرآني؛ إذ لم يقتصر القرآن الكريم على ذكرها بوصفها خوارق كونية فحسب، بل عرضها في سياق متكامل يكشف عن طبيعة الرسالة الإلهية، ووظيفة الأنبياء، وسنن الله تعالى في هداية الخلق وإقامة الحجة عليهم، ومن ثم محاسبتهم لذلك فإن المعجزة في التصور القرآني ليست غاية مستقلة، ولا وسيلة لإكراه الناس على الإيمان، وإنما هي آية ربانية تؤكد صدق الرسول، وتقطع أعذار المكذبين، وتدعو العقول والقلوب إلى التأمل في دلائل الحق، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ سورة الحديد الآية:(25). وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ سورة إبراهيم الآية:(4).وإذا كان القرآن الكريم قد أكد أن المعجزات من أعظم دلائل النبوة، فإنه في الوقت نفسه يلفت النظر إلى حقيقة قرآنية دقيقة، وهي أن وضوح الدليل لا يستلزم بالضرورة حصول الإيمان بل قد يكون من أسباب نزول العذاب الناجز؛ وقد شاهدت أمم كثيرة الآيات البينات، ومع ذلك أصرَّت على التكذيب والجحود، بل طلبت المزيد من الآيات تعنتًا واستكبارًا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾سورة الأنعام الآية:(7)، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ سورة الأنعام الآية:(111)، ومن هنا يبرز سؤال قرآني عميق، ظل يتكرر في ثنايا قصص الأنبياء، وهو: إذا كانت معجزات الأنبياء قد بلغت الغاية في الوضوح والبيان، فلماذا لم تستجب لها أمم بأكملها؟ ولماذا تحولت الآية التي كانت سببًا في هداية المؤمنين إلى سبب في زيادة المكذبين عنادًا واستكبارًا؟ إن هذا السؤال لا يبحث عن تفسير تاريخي لوقائع الماضي، وإنما يهدف إلى الكشف عن السنن القرآنية التي تحكم علاقة الإنسان بالحق، وتفسر اختلاف مواقف الناس من الدليل الواحد، مع اتحاد الحجة ووضوح البرهان، ولذلك لم يجعل القرآن الكريم المشكلة في المعجزة ذاتها، وإنما ردَّها إلى الإنسان، وإلى ما يحمله من تصورات ومعتقدات وأهواء تحول بينه وبين الانتفاع بالآيات، فبيَّن أن الكبر، والحسد، والتقليد الأعمى، والخوف على المصالح، واتباع الهوى، وقسوة القلب، جميعها عوامل تفسر استمرار التكذيب رغم ظهور الحق، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ سورة الأعراف الآية:(146)، وقال سبحانه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ سورة النمل الآية:(14)، وقال عز وجل: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾سورة

ISSN : 2410-1818

الزخرف الآية:(22)، وبهذا يكشف القرآن أن العائق الحقيقي أمام الهداية ليس نقص الدليل، وإنما غياب القابلية لقبوله.

ومن ثم فإن العلاقة بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية تمثل إحدى القضايا المركزية في القرآن الكريم؛ فإقامة الحجة سنة ربانية تتحقق بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإظهار الآيات، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، أما الهداية فهي فضل من الله تعالى، يوفق إليه من أقبل على الحق بإخلاص، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ سورة النساء الآية:(165).وقال سبحانه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ سورة القصص الآية:(56).

ومن هنا جاء هذا البحث الموسوم بـ:

(معجزات الأنبياء بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية: دراسة قرآنية في أسباب عدم استجابة المكذبين للآيات)؛ والذي يسعى إلى استقراء الآيات المتعلقة بمعجزات الأنبياء، وتحليلها في ضوء أقوال المفسرين، واستنباط الدلالات التفسيرية والسنن القرآنية المتعلقة بوظيفة المعجزات، وبيان الأسباب والدوافع التي حالت دون استجابة المكذبين لها، بما يسهم في إبراز وحدة البناء الموضوعي للقرآن الكريم في معالجة هذه القضية ويساعد كثيرين في بناء عملية اتصالية ناجحة.

أهمية الموضوع:

تتبين أهمية هذا البحث في جملة من الاعتبارات العلمية أبرزها:

1. ارتباطه بالقرآن الكريم من خلال دراسة موضوعٍ يتكرر في عدد كبير من السور المكية والمدنية، وهو معجزات الأنبياء ووظيفتها في إقامة الحجة وتحقيق الهداية.
2. الكشف عن السنن الإلهية التي تحكم علاقة الإنسان بالحق، وبيان أثر سلامة القلب أو فساده في قبول الآيات أو ردها.
3. إثراء الدراسات التفسيرية الموضوعية بإفراد قضية معجزات الأنبياء ووظيفتها بدراسة مستقلة تجمع آياتها وتربط بين سياقاتها المختلفة.
4. توضيح أن قوة المؤثرات الإيجابية في العملية الاتصالية لا تعني بالضرورة نجاحها.

أسباب اختيار الموضوع:

1. أهمية قضية المعجزات في بناء العقيدة وإثبات صدق الرسالات.
2. الحاجة إلى دراسة تفسيرية تجمع بين المعجزات وأسباب تكذيبها.
3. قلة الدراسات التي تناولت العلاقة بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية من منظور التفسير الموضوعي.
4. الرغبة في إبراز السنن القرآنية المتعلقة بقبول الحق ورده.

ISSN : 2410-1818

5. الإفادة من القصص القرآني في فهم طبيعة الاستجابة البشرية للرسالات.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في أن القرآن الكريم عرض معجزات الأنبياء بوصفها أدلةً قاطعة على صدق رسالاتهم، ومع ذلك استمر كثير من المكذبين في جحودهم وإنكارهم، مما يثير تساؤلًا علميًا حول الأسباب والدوافع التي حالت دون استجابتهم، وكيف عالج القرآن الكريم هذه الظاهرة، وما العلاقة بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية في ضوء السياقات القرآنية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1. إبراز المنهج القرآني في تفسير ظاهرة عدم استجابة المكذبين، وبيان أن القرآن يردها إلى أسباب عقدية ونفسية واجتماعية، لا إلى ضعف الدليل أو قصور الحجة.
2. بيان التكامل بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية في الخطاب القرآني، وأنهما وإن اجتمعا في مقصد الرسالة، فلكل منهما حقيقته وآثاره.
3. استقراء أبرز الأسباب والعوائق التي حالت دون استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء، وتصنيفها في ضوء الآيات القرآنية وأقوال المفسرين .
4. بيان تنوع أساليب القرآن الكريم في إقامة الحجة على المكذبين، والكشف عن مراعاتها للجوانب العقلية والنفسية في خطاب المدعوين .
5. استخلاص السنن القرآنية الحاكمة لعلاقة إقامة الحجة باستجابة المدعوين، وبيان أثر استعداد النفس لقبول الحق في تحقيق الهداية.

أسئلة البحث:

1. ما مفهوم المعجزة ووظيفتها في القرآن الكريم؟
2. ما العلاقة بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية في الخطاب القرآني؟
3. ما أبرز أسباب عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء؟
4. كيف عرض القرآن الكريم المعجزات بما يحقق إقامة الحجة ويفتح أبواب الهداية؟

الدراسات السابقة:

بعد البحث في الدراسات المتعلقة بمعجزات الأنبياء، ووظيفة المعجزات في القرآن الكريم، وأسباب تكذيب الأمم لرسلها، تبين للباحث وجود عدد من الدراسات التي تناولت بعض جوانب الموضوع، إلا أنها لم تجمع بين دراسة معجزات الأنبياء من جهة، وبيان وظيفتها في إقامة الحجة وتحقيق

ISSN : 2410-1818

الهداية، وتحليل أسباب عدم استجابة المكذبين في إطار التفسير الموضوعي من جهة أخرى، ومن هذه الدراسات:

(المضامين التربوية في قصص الأنبياء في سورة هود)، دراسة مقدمة إلى قسم التربية في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية تخصص التربية الإسلامية، إعداد: سليمان بن أحمد بن سليمان المشعلي إشراف الدكتور محمد عبد الرحمن آل عبد الوهاب الأستاذ المساعد بقسم التربية الفصل الدراسي الثاني، للعام الجامعي 1430هـ - 1431، وهذه الدراسة تربوية لكن دراستي تتميز بأنها تتناول العلاقة بين المعجزة، وإقامة الحجة، وتحقيق الهداية، وتحلل أسباب عدم استجابة المكذبين في ضوء الاستقراء الموضوعي للآيات القرآنية، بما يكشف عن السنن الإلهية الحاكمة لهذه الظاهرة، وهو جانب لم يحظ - في حدود اطلاع الباحث - بدراسة مستقلة تجمع أطرافه في إطار تفسيري موضوعي.

أهداف البحث:

1. بيان الوظيفة القرآنية لمعجزات الأنبياء.
2. الكشف عن العلاقة بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية.
3. استقراء أسباب عدم استجابة المكذبين في ضوء القرآن الكريم.
4. تحليل الدوافع المؤثرة في مواقف المكذبين.
5. إبراز المنهج القرآني في عرض المعجزات ودلالاتها التفسيرية .

منهج البحث:

أسير بعون الله ﷻ وتوفيقه في هذه الدراسة معتمداً على المناهج العلمية التي تخدم البحث في كافة جوانبه، وهي: المنهج الاستقرائي في جمع الآيات المتعلقة بمعجزات الأنبياء، ثم المنهج التحليلي في دراسة دلالاتها في ضوء السياق القرآني وأقوال المفسرين، مع الإفادة من المنهج الموضوعي في التفسير بربط الآيات بعضها ببعض، واستخراج السنن القرآنية المتعلقة بإقامة الحجة وتحقيق الهداية وأسباب عدم استجابة المكذبين.

هيكلة البحث:

يشتمل هذا البحث على مقدمة وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس علمية على النحو الآتي :

المقدمة وفيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، والدراسات السابقة، ومشكلة وأسئلة البحث، ومنهجه، وهيكل البحث.

ISSN : 2410-1818

التمهيد ويشتمل على:

أولاً: التعريف بمفردات عنوان البحث. ثانياً: مرادفات المعجزة في القرآن الكريم.

المبحث الأول :أسباب عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء، ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: الجهل.

المطلب الثاني: الحسد والاستكبار.

المطلب الثالث: التقليد الأعمى.

المطلب الرابع: الخوف على زوال الجاه والمنزلة .

المبحث الثاني: وسائل القرآن في إقامة الحجة وتحقيق الهداية بالمعجزات.

المطلب الأول: الحكمة في عرض المعجزات.

المطلب الثاني: التدرج في إقامة الحجة.

المطلب الثالث: مخاطبة القلب والعقل بالآيات.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج وأبرز التوصيات.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد.....

ISSN : 2410-1818

التمهيد ويشتمل على:

أولاً: التعريف بمفردات عنوان البحث.

1- تعريف المعجزة في اللغة والاصطلاح:

أ- تعريف المعجزة في اللغة: من أعجز وعجز وهو ما يقابل القدرة، والهاء فيها للمبالغة، في لسان العرب في مادة عجز: العجز نقيض الحزم، والعجز: الضعف، وعجز[1]عن الأمر إذا قصر عنه. وفي القرآن الكريم:﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ سورة سبأ الآية:(5). والمعجزة: أصلها مأخوذ من "عجز" قال ابن فارس: العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء [2].

وخلاصة كلام أهل اللغة[3] في ذلك أن كلمة عجز تطلق على:

1- العجز بمعنى:

الضعف تقول "عجزت عن كذا، أعجز أي ضعفت عنه، والعجوز سميت لعجزها في كثير من الأمور قال تعالى: ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾ سورة هود الآية:(72).

2- العجز بمعنى:

مؤخر الشيء والجمع أعجاز، وأعجاز الأمور: أواخرها، وعَجْزُ الشيء وعِجْزُه، وعُجْزُه وعَجُزُه وعَجِزُه: آخره، وعجز بيت الشعر: آخره[4].

من خلال ما سبق يمكن القول: إن المعجزة في الاشتقاق اللغوي لا تُنسب إلى ذاتها من حيث كونها خارقة للعادة فحسب، وإنما من حيث ما تحدثه من عجز في قدرة البشر عن معارضتها، الأمر الذي يجعلها برهانًا على صدق النبي، وآيةً دالةً على تأييد الله له، وهو المعنى الذي أبرزته التعبيرات القرآنية المختلفة عند الحديث عن معجزات الأنبياء، ومن ثم فإن العجز المقصود في المعجزة ليس غاية في ذاته، وإنما وسيلة لإقامة الحجة وإظهار الحق، وهو ما سيتضح من خلال دراسة الألفاظ القرآنية التي عبَّر بها القرآن عن معجزات الأنبياء.

---

(1) ينظر: لسان العرب، بتصرف واختصار 5/ 369. وفي المعجم الوسيط: عجز عن الشيء ضعف ولم يقدر عليه 2/ 585.

(2) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ابن فارس مادة "عجز"، ص738.

(3) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ابن فارس ص738، ولسان العرب: ابن منظور ج5 ص369، 373، المفردات في غريب القرآن، هـ ص325.

(4) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ابن فارس ص738.

ISSN : 2410-1818

ب- تعريف المعجزة في الاصطلاح:

عرف العلماء المعجزة بقولهم: "أمر خارق للعادة مقرون بالتحدّي سالم من المعارضة يظهره الله على يد رسله"[1].

2- تعريف الحجة في اللغة والاصطلاح:

أ - تعريف الحجة في اللغة:

الحجة: "البرهان؛ وقيل: الحجة ما دوفع به الخصم؛ وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة.[2]

والحجة هي: "الاستقامة في النظر والمضي فيه على سنن مستقيم من رد الفرع إلى الأصل، وهي مأخوذة من المحجة وهي الطريق المستقيم[3].

ويُستفاد من هذه الدلالات اللغوية أن الحجة تقوم على وضوح الدليل، وقوة البرهان، وإلزام الخصم بما يقطع عذره، وهو المعنى الذي أكده القرآن الكريم في عرض معجزات الأنبياء؛ إذ جعلها بيناتٍ تقيم الحجة على المكذبين، وتُظهر الحق ظهورًا لا يبقى معه عذر لمعتذر، وإن اختلفت مواقف الناس منها قبولًا أو جحودًا.

ب- تعريف الحجة في الاصطلاح:

الحجة: "ما دُلّ بها على صحة الدعوة في إقامة الأدلة والبراهين القطعية بالضوابط الشرعية على المكلف"[4].

3- تعريف الهداية في اللغة والاصطلاح:

أ- تعريف الهداية في اللغة:

الهداية: من الفعل هدى، والهدى نقيض الضلالة[5] وهي بمعنى الرشاد والدلالة[6] و الهداية: دلالة بلطفٍ[7]، يقال: هديته الطريق هداية، أي: تقدمته لأرشده.

---

(1) ينظر: الاتقان في علوم القرآن،4/ 3، وقريبا منه في مناهل العرفان في علوم القرآن (1/ 66).

(2) ينظر: لسان العرب (2/ 228).

(3) الفروق اللغوية، (ص: 70).

(4) ينظر: كتاب التعريفات-1983م ص86.

(5) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، 378/6.

(6) ينظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص1345، مختار الصحاح، الرازي، ص312.

(7) ينظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص516.

ISSN : 2410-1818

وتكشف الدلالة اللغوية للهداية عن أنها ليست مجرد الدلالة على الطريق، بل تتضمن معنى الإرشاد بلطفٍ إلى الحق حتى يبلغ المهتدي غايته، ومن ثم جاء الاستعمال القرآني للهداية أوسع من مجرد البيان؛ إذ جمع بين إظهار سبيل الحق والتوفيق لسلوكه، وهو ما يبرز العلاقة بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية في الخطاب القرآني .

ب- تعريف الهداية في الاصطلاح:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي كثيرًا ، فقد قال الجرجاني: "الهداية في الاصطلاح: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب"[1].

وقيل: إن الهداية عند أهل الحق هي الدلالة على طريق من شأنه الإيصال، سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء، أو لم يحصل[2].

ويلاحظ أن تعريف الجرجاني أدق، وأشمل؛ لأنه لا بد من حصول المطلوب سواء كانت الهداية طريقًا للدلالة إلى الخير، أو إلى غيره، كما أن الكافرين يهدون إلى سواء الجحيم.

ثانيا: مرادفات المعجزة في القرآن الكريم:

اعتنى القرآن الكريم بالتعبير عن معجزات الأنبياء عنايةً بالغة، فلم يقتصر على لفظ واحد يدل عليها، بل نوَّع في الألفاظ والتراكيب بحسب المقام والسياق، بما يكشف عن دقة التعبير القرآني، وثراء دلالاته. ومن اللافت أن القرآن الكريم لم يستعمل لفظ "المعجزة" ولا "الإعجاز" للدلالة على خوارق الأنبياء، وإنما عبَّر عنها بألفاظ متعددة، أبرزها: الآية، والبينة، والبرهان، والسلطان، وهي ألفاظ تحمل دلالات متكاملة تسهم في بيان حقيقة المعجزة ووظيفتها في إقامة الحجة وإظهار الحق. ومن ثم فإن الوقوف على هذه الألفاظ ودلالاتها يعد مدخلًا مهمًا لفهم التصور القرآني لمعجزات الأنبياء.

وقد ورد في القرآن الكريم استعمال مشتقات كلمة "عجز" نحو ست وعشرين مرة لكنه لم يرد ا ستعمال م صطلح "معجزة" ولا "إعجاز" في القرآن ولا في الـ سنة، ولم يعرف إطلاق م صطلح "معجزة" على الأمور الخارقة التي تظهر على أيدي الأنبياء عليهم السلام إلا في أواخر القرن الثاني تقريبًا[3].

(1) التعريفات للجرجاني، ص215.

(2) ينظر: الكليات، الكفوي، ص952.

(3) ينظر: مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص13.

ISSN : 2410-1818

وأطلق القرآن على المعجزة عدة مسميات منها:

1- الآية:

في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الأنعام: الآية:(109)، وفرعون يقول لموسى -عليه السلام-: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ سورة الأعراف: الآية (106).

2- البينة:

قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ سورة الأعراف: الآية(105)، وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ سورة الأعراف: الآية(73).

3- البرهان:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾سورة النساء: الآية (174)، وقال سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه موسى عليه السلام بعدما أمره أن يلقي عصاه فإذا هي حية وأن يخرج يده فإذا هي بيضاء من غير سوء: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾سورة القصص: الآية 32.

4- السلطان: كما قال الكفار لأنبيائهم: ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ سورة إبراهيم الآية:(10)، وأجاب الرسل عليهم السلام: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ سورة إبراهيم الآية:(11). وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ سورة المؤمنون: الآيتين(45- 46)،[1].

(1) ينظر: دراسات في علوم القرآن الكريم، المؤلف: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي (ص: 259).

ISSN : 2410-1818

يتبين من خلال استقراء الألفاظ التي عبَّر بها القرآن الكريم عن معجزات الأنبياء أن القرآن لم يستخدم لفظًا واحدًا، وإنما نوَّع في تعبيراته بحسب المقام والسياق؛ فاستعمل لفظ "الآية" لإبراز كونها علامةً دالةً على صدق الرسول، و"البينة" لظهور الحق ووضوحه، و"البرهان" لقوة الحجة وإلزام الخصم، و"السلطان" لما يتضمنه من قوة الدليل ونفوذه، وهذا التنوع ليس من قبيل الترادف، بل يعكس دقة التعبير القرآني، ويؤكد أن المقصد الأساس من المعجزات هو إقامة الحجة على المكذبين، وفتح سبيل الهداية لمن أقبل على الحق بقلب منصف.

ISSN : 2410-1818

المبحث الأول : أسباب عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء

لم يجعل القرآن الكريم عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء راجعًا إلى ضعف الدليل أو غموض البرهان، بل ردَّ ذلك إلى أسباب متجذرة في نفوس المكذبين، حالت بينهم وبين الانتفاع بالآيات التي أيد الله بها رسله، ومن خلال استقراء السياقات القرآنية يتبين أن هذه الأسباب لم تكن طارئة أو خاصة بأمة دون أخرى، وإنما مثلت طريقة متكررة في مواقف الأمم من رسلهم، رغم اختلاف الأزمنة والبيئات. وقد كشف القرآن الكريم عن تلك الأسباب، وربطها بما استقر في القلوب من جهلٍ، واستكبارٍ، وتقليدٍ، وتعلقٍ بالمصالح الدنيوية، حتى أصبحت المعجزة - مع وضوح دلالتها - لا تزيد المكذبين إلا إعراضًا وعنادًا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ سورة الأنعام الآية:(111).

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: "يا محمد، لا تطمع في فلاح هؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأصنام، القائلين لك: "لئن جئتنا بآية لنؤمنن لك"، فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانًا، وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حُجَّةً لك، ودلالة على نبوّتك، وأخبروهم أنك محقٌّ فيما تقول، وأن ما جئتهم به حقٌّ من عند الله، وحشرنا عليهم كل شيء فجعلناهُم لك قبلا ما آمنوا ولا صدّقوك ولا اتبعوك إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم"[1]. وكأن الله عز وجل يطمن نبيه بأن ضلال هؤلاء وكفرهم ليس بسبب نقص الحجة أو ضعف البيان بل بأمر يتعلق بقناعاتهم وصفاتهم وميولهم وإن هذا دأب الذين كفروا من قبلهم ما زادتهم الآيات إلا كفرا وجحودا.

وفي هذا المبحث سوف أبين أبرز الأسباب التي كشف عنها القرآن الكريم، وبيان أثرها في صرف المكذبين عن الإيمان بمعجزات الأنبياء، في ضوء التفسير الموضوعي لآيات الكتاب العزيز.

المطلب الأول: الجهل:

يُعدُّ الجهل من أبرز الأسباب التي كشف عنها القرآن الكريم في بيان موقف المكذبين من معجزات الأنبياء، ولذلك لم يرد القرآن الكريم عدم استجابتهم إلى ضعف الدليل أو قصور البرهان، أو تقصير الرسل في أداء رسالاتهم وإنما أرجعه إلى فساد التصور، وانحراف النظر، والإعراض عن الحق بعد ظهوره، فالجهل في المنظور القرآني لا يقتصر على عدم العلم، بل يمتد ليشمل تعطيل العقل عن الانتفاع بالآيات، وردَّ البينات مع قيام الحجة ووضوح البرهان، وهو ما جعله القرآن الكريم سببًا في استمرار الأمم المكذبة على كفرها، رغم ما أيد الله به رسله من المعجزات الباهرة والبراهين القاطعة[2]

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (12/ 46).

(2) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني – المعرفة (ص: 102).

ISSN : 2410-1818

وقد عرَّف أهل اللغة الجهل بأنه نقيض العلم، وهو: "اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، وهو على قسمين: الجهل البسيط: وهو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما، والجهل المركب: هو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع"[1].

ومن ثم فإن الجهل الذي يصف به القرآن المكذبين ليس مجرد فقدان المعرفة، وإنما هو انحراف في النظر، وفساد في الحكم، حال بينهم وبين إدراك دلالة المعجزات التي أيد الله بها رسله.

وقد تجلت هذه الحقيقة في موقف قوم نوح عليه السلام، حين اعترضوا على أتباعه، وجعلوا ضعفهم وفقرهم سببًا للطعن في رسالته، فقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ سورة هود الآيتين:(28-29)

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ ﴾، أي" وما أنا بمقصٍ من آمن بالله، وأقرّ بوحدانيته، لأنهم لم يكونوا من عِلْيتكم وأشرافكم وقوله: ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ يقول: ولكني، أيها القوم، أراكم قومًا تجهلونَ الواجبَ عليكم من حقّ الله، واللازم لكم من فرائضه. ولذلك من جهلكم سألتموني أن أطرد الذين آمنوا بالله"[2]، فقد بيَّن الإمام الطبري أن المراد بالجهل هنا جهلهم بحق الله تعالى، وبمنزلة المؤمنين عنده، إذ طلبوا طرد أهل الإيمان وجعلوا معيار التفاضل الغنى والجاه، لا الإيمان واليقين.

وقال ابن عاشور عن الجهل المؤدي إلى الاعراض: "ولكنكم تجهلون صفات الله وحكمة إرساله الرسل، فتحسبون أن الرسل وسائط؛ لأنها اقتراح الخلق على الله أن يريهم العجائب ويساجلهم في الرغائب"[3].

ويتكرر هذا المعنى في موقف مشركي مكة من رسول الله ﷺ، حيث لم يكن اعتراضهم على قلة الآيات، وإنما على جهلهم بحقيقة وظيفة المعجزة؛ فكانوا يقترحون الآيات تعنتًا لا طلبًا للهداية، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ سورة الأنعام الآية:(37) "فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها لعجل لهم بالعقاب كما هي سنة الله التي لا تبديل لها"[4]

---

(1) التعريفات – (108/1).

(2) تفسير الطبري (15/ 300، 301).

(3) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، (26/ 48).

(4) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)، (صـ: 255).

ISSN : 2410-1818

ثم بين سبحانه أن العلة ليست في غياب المعجزة، وإنما في فساد القلوب، فقال :﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ سور الأنعام الآية:(111).

فالجهل هنا يفسر "بعدم المعرفة وبالطيش والسفه"[1]، ولذلك "أسند الجهل إلى أكثرهم مع أن مطلق الجهل يعمهم"[2].

فالآية تدل على أن امتناعهم عن الإيمان لم يكن لقصور الحجة، وإنما لتمكن الجهل والعناد من قلوبهم، حتى لو اجتمعت لهم جميع الآيات المقترحة، وجهلهم بحقائق الإيمان، وبسنن الله في الهداية، ولذلك لم ينتفعوا بقيام الحجة عليهم.

من خلال ما سبق يمكن القول:

1- إن القرآن الكريم يجعل الجهل بالحق والجهل بعواقب الكفر وتكذيب الرسل سببًا رئيسًا في عدم الاستجابة لمعجزات الأنبياء، إذ يحول بين الإنسان وبين إدراك دلالة الآية، فينشغل بالطعن في الرسول أو أتباعه، أو يطالب بالمزيد من المعجزات، مع أن العلة كامنة في قلبه لا في الدليل الذي بين يديه. ومن هنا لم يكن الجهل مجرد وصف معرفي، بل كان مرضًا قلبيًا أفسد ميزان النظر والعقل، وأدى إلى ردِّ البينات مع وضوحها، وهو ما يفسر استمرار المكذبين في عنادهم رغم تعاقب الآيات وقيام الحجة.

2- إن الجهل الذي تحدث عنه القرآن الكريم هو جهل مركب، اجتمع فيهم بشقيه نقص المعرفة ونقص العقل وهو الذي جمع فيهم بين فساد التصور، وسوء تقدير البراهين، والإعراض عن الحق بعد ظهوره، ولذلك كان أول الأسباب التي حالت بين المكذبين وبين الانتفاع بمعجزات الأنبياء، ومهد لظهور أسباب أخرى، كالحسد والاستكبار والتقليد الأعمى، وهي ما ستتناوله الدراسة في المطالب الآتية.

المطلب الثاني: الحسد والاستكبار:

إذا كان الجهل بالحق يحول بين الإنسان وبين إدراك دلالة المعجزات، فإن الحسد والاستكبار قد يدفعان صاحبهما إلى ردِّ الحق مع العلم بصدقه، ولذلك كانا من أخطر الأسباب التي كشفت عنها الآيات القرآنية في تفسير موقف المكذبين من معجزات الأنبياء. فالقرآن الكريم لا يصور المكذبين على أنهم جميعًا كانوا يجهلون حقيقة ما جاء به الرسل، بل يبين أن كثيرًا منهم أدركوا صدق

(1) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، المؤلف: حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، (1/ 346)

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الأولى - 1418 هـ، (2/ 178).

ISSN : 2410-1818

الرسالة، غير أن الحسد لما استقر في نفوسهم، والاستكبار لما تمكن من قلوبهم، حالا بينهم وبين الاستجابة لما قامت به الحجة، فأعرضوا عن الآيات مع وضوحها، وجحدوا البينات مع يقينهم بصدقها.

والحسد: "تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد"(1)، وقد بين النبي ﷺ أن الحسد من أقوى أسباب إعراض الأمم السابقة عن الإيمان بالأنبياء فقال ﷺ: (دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد، والبغضاء، والبغضاء هي: الحالقة، حالقة الدين)(2).

يقول ابن القيم- رحمه الله- "الحسد خلق نفس ذميمة وضيعه سَاقِطَة لَيْسَ فِيهَا حرص على الْخَيْر فلعجزها ومهانتها تحسد من يكْسب الْخَيْر والمحامد، ويفوز بهَا دونهَا وتتمنى أَن لوفاته كسبها حَتَّى يساويها فِي الْعَدَم....، فالحسود عَدو النِّعْمَة متمن زَوَالهَا عَن الْمَحْسُود"(3).

والحسد يُعْمي ويُصمّ، فقد يطغى بعض الأقران على بعض، ويطعن بعضهم في بعض؛ من أجل القرب من سلطان، أو الحصول على جاه أو مال(4).

ومن هنا كان الحسد سببًا في ردِّ الحق؛ لأنه يجعل صاحبه ينظر إلى الرسالة من خلال مكانة الرسول أو منزلته، لا من خلال ما جاء به من الدليل والبرهان.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في بيان موقف أهل الكتاب من بعثة النبي ﷺ، فقال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ سورة البقرة الآية:(109)، أي: "إن كثيرا من أهل الكتاب يودون للمؤمنين ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم يودونه لهم، من الردة عن إيمانهم إلى الكفر، حسدا منهم وبغيا عليهم، وحسدكم أهل الكتاب على ما أعطاكم الله من التوفيق، ووهب لكم من الرشاد لدينه والإيمان برسوله، وخصكم به من أن جعل رسوله إليكم رجلا منكم رؤوفا بكم رحيما، ولم يجعله منهم، فتكونوا لهم تبعا"(5).

---

(1) التعريفات،(صـ: 87).

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده – مسند باقي العشرة المبشرين بالجنة – مسند الزبير بن العوام ﷺ– (3/ 29)– حديث رقم (1412)، وقال المحقق: رجاله ثقات رجال الشيخين.

(3) الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة . (صـ: 252).

(4) المرجع السابق نفسه– (5/ 107)

(5) تفسير الطبري (2/ 500، 501).

ISSN : 2410-1818

فتدل الآية دلالة واضحة على أن باعثهم لم يكن الجهل، بل الحسد الذي استقر في نفوسهم بعد أن تبين لهم الحق، وهو ما يبرز أن الحسد قد يحمل صاحبه على إنكار المعجزة وردِّ الرسالة، رغم علمه بصدقها، وقد قرر الإمام الطبري أن المراد بالحسد هنا تمني زوال ما خص الله به أمة محمد ﷺ من النبوة والهداية، مع علمهم أن ما جاء به الرسول حق موافق لما في كتبهم.

وقال ابن عاشور: "أعرضوا عن الإسلام، وصمموا على البقاء على دينهم، وودوا لو يردونكم إلى الشرك أو إلى متابعة دينهم حسدا على ما جاءكم من الهدى بعد أن تبين لهم أنه الحق"[1].

حيث يرى أن الآية تكشف عن أن الدافع الحقيقي لموقفهم لم يكن غموض الدليل، وإنما فساد النفس التي آثرت المحافظة على المكانة الدينية والرياسة على اتباع الحق.

ويتأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾سورة النساء الآية:(54)، (أم يحسدون) "يعني اليهود. (الناس) يعني النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. حسدوه على النبوة وأصحابه على الايمان به. وقال قتادة: (الناس) العرب، حسدتهم اليهود على النبوة. قال الضحاك: حسدت اليهود قريشا، لأن النبوة فيهم. والحسد مذموم وصاحبه مغموم وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"[2].

حيث جعل القرآن الحسد سببًا في الاعتراض على اختيار الله لأنبيائه ورسله، فكأن الحاسد يعترض على قسمة الله وفضله، لا على صحة الرسالة نفسها. وقد بين المفسرون أن المراد بـ﴿النَّاسَ﴾ في الآية رسول الله ﷺ ومن آمن معه، وأن حسد اليهود كان منصبًا على ما آتاهم الله من النبوة والكتاب والهداية، لا على أمر دنيوي مجرد.

ولم يقتصر الحسد على أهل الكتاب، بل ظهر أيضًا في موقف مشركي قريش، حين قالوا ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾سورة الزخرف الآية:(31).

قال هؤلاء المشركون بالله من قريش لما جاءهم القرآن من عند الله: هذا سحر، فإن كان حقا فهلا نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف واختلف في الرجل الذي وصفوه بأنه عظيم، فقالوا: هلا نزل عليه هذا القرآن، فقال بعضهم: هلا نزل على الوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من أهل الطائف؟"[3].

(1) التحرير والتنوير (3/ 198).

(2) الجامع لأحكام القرآن م، (5/ 251).

(3) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (20/ 580).

ISSN : 2410-1818

فقد كان اعتراضهم ناشئًا عن استكبارهم أن يختار الله نبيًا من غير سادتهم، ولم يكن اعتراضًا على صدق القرآن أو إعجازه، ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾سورة النمل الآية:(32)، أي "أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي، ثم بين سبحانه أن ذلك الحسد لا يؤثر في زوال ذلك، فإنه سبحانه يختص برحمته وإحسانه من يشاء"[1]، فيقرر الرازي أن الآية تدل على أن سبب تكذيبهم لم يكن خفاء الحق، وإنما استكبارهم عن اتباع من رأوه دونهم في المكانة الاجتماعية، وهو لون من ألوان الحسد والكبر اللذين يحجبان القلب عن قبول البينات، وهذا يدل على أن اختيار الرسل فضل إلهي لا يخضع لمقاييس البشر ولا لموازين الجاه والسلطان.

وقد اقترن الحسد بالاستكبار في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ لأن الحاسد يرى أن غيره لا يستحق ما أكرمه الله به، بينما يدفع الاستكبار صاحبه إلى رفض الخضوع للحق ولو قامت عليه الحجة. ومن أوضح الأمثلة على ذلك موقف فرعون، الذي لم ينكر معجزات موسى عليه السلام لخفائها، وإنما استكبر عن اتباعه مع يقينه بصدقها، كما قال تعالى:﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ سورة النمل الآية:(14).

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ أي: في ظاهر أمرهم، ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ أي: ظلما من أنفسهم، سجية ملعونة، ﴿ وَعُلُوًّا ۚ ﴾ أي: استكبارا عن اتباع الحق؛ ولهذا قال: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم، في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة، وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإن برهان محمدا، صلوات الله وسلامه عليه أشرف وأعظم من برهان موسى، وأدل وأقوى، بما آتاه الله من كتابه والدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام"[2].

فالآية تبين أن اليقين بصدق المعجزة قد يجتمع مع الجحود إذا استولى الحسد والاستكبار على القلب، وهو ما يجعل الإنسان يرد الحق لا لضعف دليله، وإنما لفساد قصده.

(1) تفسير الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير – للرازي – (3/ 636).

(2) تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ، (6/ 181).

ISSN : 2410-1818

من خلال ما سبق يمكن القول:

1- إن الحسد والاستكبار لم يكونا مجرد صفات أخلاقية مذمومة، بل كانا سببين رئيسين في عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء وعدم تأثيرها فيهم، إذ أفسدا قابلية النفس لقبول الحق، وحالا دون الانتفاع بالآيات، فصار أصحابها ينظرون إلى منزلة الرسول ونسبه ومكانته، أكثر من نظرهم إلى صدق الرسالة وقوة البرهان.

2- إن القرآن الكريم يكشف عن أن الحسد والاستكبار من أخطر العوائق التي تحول دون الهداية، لأنهما يدفعان الإنسان إلى معارضة الحق بعد معرفته، وردِّ المعجزات مع قيام الحجة، ولذلك تكرر اقترانهما في سياق الحديث عن المكذبين بالرسل، لتقرير سنة قرآنية مؤداها أن فساد القلب قد يحجب صاحبه عن الإيمان، ولو شاهد من الآيات ما يقطع بصدق الرسل.

المطلب الثالث: التقليد الأعمى:

إذا كان الجهل بالحق يحجب الإنسان عن إدراك دلالة المعجزات، وكان الحسد والاستكبار يحملانه على ردِّها بعد العلم بصدقها، فإن التقليد الأعمى يمثل عائقًا آخر من العوائق التي تحول دون الاستجابة لآيات الله؛ إذ يفقد الإنسان استقلاله في النظر، ويجعله أسيرًا لما ورثه عن الآباء والأسلاف، فيزن الحق بميزان العادة لا بميزان البرهان، ويجعل الموروث حاكمًا على الوحي، بدل أن يكون الوحي حاكمًا على الموروث، ومن ثم لم يكن التقليد الأعمى في المنظور القرآني مجرد ظاهرة اجتماعية، بل كان سببًا رئيسًا في تعطيل أثر المعجزات، وإفساد وظيفة العقل التي خُلق الإنسان من أجلها، حتى أصبح المكذبون يرفضون دعوات الأنبياء قبل التأمل في براهينها، اكتفاءً بما ألفوه من معتقدات وعادات.

إن الناظر في القرآن الكريم يرى الإعراض في قصص الأنبياء - عليهم السلام - ظاهراً جليًا وكان ذلك؛ بدافع التقليد الأعمى والتعصب المذموم؛ لدين الآباء والأجداد، والعادات والتقاليد كما قال تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ سورة ص الآية:(7) حيث "ركنوا إلى السوء والعادة، وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلالة، واستناموا إلى التقليد والهوادة"[1].

والتقليد الأعمى هو: "اتباع الإنسان غيره فيما يقول، أو يفعل معتقدًا للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل؛ كأن هذا المتبع جعل قول الغير، أو فعله قلادة في عنقه، وهو قبول قول الغير بلا حجة، ولا دليل يدل عليه"[2].

(1) لطائف الإشارات – عبد الكريم بن هوازن القشيرى – (3/ 246) .

(2) التعريفات للجرجاني –(1 /90).

ISSN : 2410-1818

وقد أخبر الله ﷻ في القرآن الكريم عن انتشار هذا التقليد الأعمى في الأمم السابقة، والذي كان من أشد الأسباب في الإعراض وعدم الإيمان بالله -عزوجل- فهذا التقليد الأعمى صرف قوم نوح عليه السلام عن دعوته، وقالوا له ﷺ بكل جراءة وقبح ورفض للحق، وللأمر الإلهي﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما "سمعنا في القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد بمثل هذا الذي يدعو إليه نوح من أنه لا إله إلا إله واحد لا ربّ غيره ولا معبود سواه، وفى هذا إيماء إلى أنهم قوم لا رأى لهم، وإنما يعولون على التقليد وقول الآباء والأجداد"(1).

وهذا التقليد صرف قوم هود عليه السلام عن دعوته فقالوا له ﷺ ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ سورة الأعراف الآية:(٧٠)، حيث إن احتجاج قومه على "صحَّة باطلهم بفعل آبائهم وأجدادهم يكاد يكون سنّةً مطَّردةً في الأمم والشعوب، وهو التقليد المذموم"(2).

كما صرف التقليد قوم صالح عليه السلام فقالوا له﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ سورة هود الآية:(62).

كما صرف التقليد الأعمى قوم شعيب عليه السلام من اتباعه والإذعان له فقالوا له:﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ سورة هود الآية:(87).

كما أخبرنا الله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام عندما دعا قومه إلى عبادة الله ﷻ ونبذ ما هم عليه من عبادة الأوثان، والأصنام، وناقشهم بالحجج العقلية والبراهين المنطقية، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ سورة الأنبياء من الآية(52).

فكان جواب قومه بالتقليد الأعمى: ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ سورة الأنبياء من الآية (53)، بلا تفكير، ولا تأمل تقليد أعمي ينافي العقل الصحيح، والفهم السليم، لا حجة لهم في ذلك إلا تقليد الآباء، سواء كانوا على حق، أم على باطل، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ

(1) تفسير المراغي – أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ) – (18/ 18).

(2) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير– جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري – (2/ 193).

ISSN : 2410-1818

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ سورة الزخرف الآيتان(٢٣، ٢٤). فقد "اعترفوا بأن أصنامهم بمعزل عما ذكر من السمع، والمنفعة، والمضرة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أنهم لا سند لهم سوى التقليد الرديء"[1].

وأخبرنا الله ﷻ عن التقليد الأعمى الذى أصاب قوم موسى عليه السلام فقالوا له: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ سورة القصص الآية:(36). فحين جاء موسى عليه السلام بالحجج البالغة الدالة على صدق رسالته إلى فرعون وملأه " قالوا ما هذا إلا سحر افتريته من عندك وانتحلته كذبا وبهتانا، وما سمعنا بهذا الذي تدعونا إليه من عبادة إله واحد في أسلافنا وآبائنا الذين مضوا من قبلنا. وهذا تحكيم لعادة التقليد التي أضلّت كثيرا من الناس على أنهم قد كذبوا وافتروا نعم، هذا هو شأن كل المتمردين على منهج الله تعالى"[2].

وهذا رسول الله ﷺ قابله قومه بالإعراض عن دعوته بسبب التقليد الأعمى؛ وقد كانت إجابة قومه كغيرهم من أقوام الأنبياء السابقين - عليهم السلام - فلما دعا قريشًا لترك ما عندهم من عبادات وثنية وعادات جاهلية، قالوا ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ سورة البقرة الآية:(170).

وقد بين النبي ﷺ أن قضية التقليد الأعمى قضية خطيرة عند كل المخالفين لدعوته ﷺ فقال كما جاء في صحيح الإمام البخاري - رحمه الله- في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود)[3].

كان النبي محمد ﷺ يقصد الرؤساء والأشراف، وأهل الترف لكنهم رفضوا قبول الدعوة بسبب التعصب لتراث الآباء والأجداد، فقد ذكر الله ﷻ أن الذين وقعوا في الفواحش، ووقعوا في الموبقات، ووقعوا في المنكرات، ووقعوا فيما يخالف العقل قبل أن يخالف الشرع، إنما فعلوا هذا ثم استهانوا به؛ لأنهم عهدوا آباءهم عليه، قال الله تبارك وتعالى عنهم:قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ سورة الأعراف الآية:(28).فالتقليد الأعمى أصل لكثير من ضلال البشر وفساد اخلاقهم، لذلك حذر الإسلام أتباعه من التقليد الأعمى، والتبعية المطلقة بدون وعي.

---

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي (المتوفى: 1224هـ) (4/ 140).

(2) تفسير المراغي – أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ) – (صـ: 3821).

(3) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه – كتاب: مناقب الأنصار – باب: باب إتيان اليهود النبي ﷺ، حين قدم المدينة – (70/5) – حديث رقم– (3941).

ISSN : 2410-1818

ويكشف القرآن الكريم من خلال هذا العرض أن التقليد الأعمى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجهل والحسد والاستكبار؛ فالجاهل يقلد؛ لأنه لا يبحث عن الدليل، والحاسد يقلد حفاظًا على مكانته، والمستكبر يقلد لأنه يرى في تغيير الموروث انتقاصًا من منزلته، ولذلك اجتمعت هذه الأسباب في كثير من مواقف الأمم المكذبة، حتى أصبحت منظومة متكاملة تحول دون الهداية، رغم وضوح البينات وتتابع المعجزات.

من خلال ما سبق يمكن القول: إن القرآن الكريم جعل من التقليد الأعمى أحد أخطر أسباب عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء وهداياتهم الواضحة ؛ لأنه يعطل وظيفة العقل، ويجعل الإنسان أسيرًا للموروث وتابعا مرؤوسا للمترفين المكذبين والرؤساء الطواغيت، فيقدم أقوال الآباء على براهين الوحي، ويرفض المعجزات لا لقصور في دلالتها، وإنما لعجزه عن التحرر من سلطان العادة وهيمنة المجتمع، ومن ثم فإن أول طريق الهداية في المنهج القرآني هو تحرير العقل من أسر التقليد، حتى ينظر في آيات الله نظرًا قائمًا على الدليل والبرهان، لا على مجرد ما ألفه الناس وتوارثته الأجيال.

المطلب الرابع: الخوف على زوال الجاه والمنزلة:

يُعدُّ الخوف على الجاه والمنزلة الاجتماعية من أبرز الأسباب التي حالت بين المكذبين وبين الاستجابة لمعجزات الأنبياء، إذ يكشف القرآن الكريم أن كثيرًا من قادة الكفر وزعماء الأقوام لم يكن اعتراضهم على الرسل ناشئًا عن ضعف البراهين أو غموض المعجزات، وإنما عن خشيتهم أن يؤدي الإيمان إلى فقدان ما كانوا يتمتعون به من سلطان ونفوذ ورياسة بين أقوامهم. ومن ثمَّ أصبحت المحافظة على المكانة الاجتماعية والسياسية مقدمة عندهم على اتباع الحق، فغلبت المصالح الدنيوية على مقتضيات الإيمان، وآثروا البقاء في مواقع القيادة على الاستجابة لما جاءت به الرسل من الآيات البينات.

ولا يقتصر القرآن الكريم على بيان هذا الدافع في أمة بعينها، بل يجعله سنة متكررة في تاريخ الرسالات، إذ كان الملأ ـ وهم أصحاب السلطة والنفوذ ـ أول من تصدى لدعوات الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ سورة هود الآية:(27)، فقال الملأ يعني: "الأشراف من قومه"[1].

وهو تعبير يتكرر في قصص نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم، مما يدل على أن مقاومة الدعوة كانت في الغالب تصدر من الطبقة التي تخشى على نفوذها أكثر من غيرها.

(1) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، (6/ 2022).

ISSN : 2410-1818

وقد نبه ابن عاشور إلى أن تخصيص الملأ بالذكر في هذه المواضع يشير إلى أن أصحاب الرياسة كانوا يدركون أن قبول دعوة الأنبياء يقتضي تغيير موازين المجتمع، ومن ثم كانوا أشد الناس مقاومة لها[1].

ومن أوضح النماذج القرآنية الدالة على ذلك موقف فرعون من معجزات موسى عليه السلام؛ فقد أظهر القرآن أن فرعون لم ينكر الآيات لعدم وضوحها، وإنما خشي أن تؤدي رسالة موسى إلى زوال ملكه وسلطانه، فقال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ سورة غافر الآية:(26)، أي: "إني أخاف إن لم اقتله، أن يبدل دينكم، وأن يغير ما أنتم عليه من الدين، الذي هو عباره عن عبادته وعبادة الأصنام التي تقربهم إليه"[2].

ويكشف هذا القول عن محاولة فرعون تصوير دعوة موسى- عليه السلام - على أنها تهديد للنظام القائم، مع أن حقيقة الخوف كانت على عرشه وسلطانه، لا على دين قومه. كما يستنتج من الآية أن فرعون خاطب قومه بهذا الأسلوب ليصرفهم عن النظر في معجزات موسى، ويثير في نفوسهم الخوف من التغيير، فجعل المحافظة على سلطانه في صورة المحافظة على مصالح الأمة.

هذا وقد حكى القرآن عن قوم نوح - عليه السلام - أنهم قالوا : ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾سورة هود الآية:(27)، "لقد غاب عن هؤلاء أن مقياس التفاضل بين الناس في حياتهم الدنيا بين الفقر والغنى ليس دليلا على أفضلية الغني على الفقير، ولا القوي على الضعيف، ولا صاحب السلطان على من لا سلطان له، إن هذا المقياس الأعمى لا علاقة له بقضية الاصطفاء للرسالة. فالله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته"[3].

فلم يكن اعتراضهم منصبًا على دعوة نوح أو معجزاته، بل على أن اتباعه يقتضي مساواتهم بمن كانوا يرونهم دونهم منزلة، ومن هنا ارتبط رفض الرسالة بالمحافظة على الامتيازات الطبقية، أكثر من ارتباطه بمناقشة أدلتها.

من خلال ما سبق يمكن القول:

1- إن الخوف على الجاه والمنزلة كان سببًا مباشرًا في تعطيل أثر المعجزات؛ إذ إن أصحاب النفوذ لم ينظروا إلى الآيات باعتبارها دلائل على صدق الأنبياء، وإنما نظروا إليها باعتبارها تهديدًا لمراكزهم

(1) ينظر: التحرير والتنوير (12/ 46).

(2) ينظر: إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم(311/5).

(3) الوحي والإنسان – قراءة معرفية، المؤلف: محمد السيد الجليند (ص: 35).

ISSN : 2410-1818

ومصالحهم. ولذلك لم يكن الصراع في كثير من الأحيان صراعًا حول الدليل، بل صراعًا حول السلطة والقيادة، وهو ما يفسر شدة مقاومة الملأ للرسل في مختلف الأمم.

2- بين القرآن الكريم أن الخوف على الجاه والمنزلة كان أحد أهم أسباب عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء وإعراضهم عن قبول الرسالات السماوية.

3- إن عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء لم يكن راجعًا إلى ضعف المعجزات أو غموض دلالتها، وإنما كان ثمرةً لجملة من العوائق الفكرية والنفسية والاجتماعية التي استحكمت في نفوسهم، فحالت بينهم وبين الانتفاع بما أيد الله به رسله من الآيات البينات، فقد كشف هذا المبحث أن الجهل أفسد إدراكهم لحقيقة الرسالة، وأن الحسد والاستكبار دفعاهم إلى ردِّ الحق بعد العلم به، بينما أدى التقليد الأعمى إلى تعطيل وظيفة العقل، وجعل الموروث مقدمًا على الوحي، في حين كان الخوف على الجاه والمنزلة باعثًا على مقاومة الدعوة حفاظًا على النفوذ والمصالح الدنيوية.

4- إن مقاومة الأنبياء لم تكن تقوم في الغالب على مناقشة معجزاتهم أو الطعن في دلالتها، وإنما كانت تنطلق من دوافع داخلية حجبت أصحابها عن النظر الموضوعي في البينات، الأمر الذي يبرز العلاقة الوثيقة بين سلامة القلب وصحة النظر، ويؤكد أن الإيمان وقبول الرسالات السماوية ليس ثمرة قوة البرهان فحسب، بل ثمرة لاستعداد النفس لقبول الدعوة الحق وسلامة القلب من الأمراض التي ذكرناها في هذا المبحث.

ومن ثم فإن هذه الأسباب تمثل الأساس الذي يُفسر موقف الأمم من معجزات الأنبياء، ويمهد للانتقال إلى المبحث التالي، الذي يتناول الدوافع التي عززت هذا الرفض ورسخته في واقع الأمم، ليتضح من خلاله أن الموانع الداخلية كثيرًا ما اقترنت بمؤثرات خارجية أسهمت في استمرار التكذيب والإعراض عن آيات الله.

ISSN : 2410-1818

المبحث الثاني: وسائل القرآن في إقامة الحجة وتحقيق الهداية بالمعجزات

لم يقتصر القرآن الكريم في عرضه لمعجزات الأنبياء على مجرد إثبات صدق الرسالة أو إقامة البرهان على نبوة المرسلين، بل جاء عرضها وفق منهج رباني محكم يراعي طبيعة النفس الإنسانية، واختلاف أحوال المخاطبين، وتفاوت درجات استعدادهم لقبول الحق أو الإعراض عنه، ومن ثم لم تكن المعجزة في المنظور القرآني غايةً في ذاتها، فهي وإن كانت وسيلة لإقامة الحجة، فهي أيضا طريق لفتح أبواب الهداية أمام من تجرد لطلب الحق، وإزالة للشبهات التي تحول بين الإنسان وبين الإيمان بالله تعالى ورسله.

وقد تنوعت الأساليب القرآنية في عرض المعجزات بما يحقق هذه المقاصد؛ فتارة يعرضها في سياق الحوار العقلي، وتارة يربطها بسنن الله في الكون والتاريخ، وتارة يبرز أثرها في إيقاظ الفطرة واستثارة الوجدان، مما يكشف عن التكامل بين الدليل العقلي، والتأثير النفسي، والبيان القرآني في تحقيق الغاية التي من أجلها أُرسلت الرسل، وهي هداية الخلق وإقامة الحجة عليهم. كما أن القرآن لم يجعل المعجزات منفصلة عن الرسالة، بل قرنها دائمًا بالدعوة إلى التوحيد، وتصحيح العقيدة، وإصلاح السلوك، ليؤكد أن المقصود من المعجزة ليس الإبهار أو مجرد خرق العادة، وإنما توجيه الإنسان إلى الإيمان عن بصيرة واختيار.

ومن خلال النظر في الآيات الواردة في قصص الأنبياء يتبين أن القرآن اعتمد وسائل متعددة في عرض المعجزات، اتسمت بالحكمة، ومراعاة التدرج في إقامة الحجة، والجمع بين مخاطبة العقل والقلب، بما يتناسب مع اختلاف البيئات والأقوام، ويحقق المقصد الأعظم من الرسالات السماوية، وهو هداية الإنسان إلى الحق بعد قيام البرهان عليه، وسأعرض لهذا في ثلاث مطالب.

المطلب الأول: الحكمة في عرض المعجزات:

تُعدُّ الحكمة من أبرز المقاصد التي قامت عليها الرسالات السماوية، وهي السمة الغالبة على جميع أفعال الله تعالى وتشريعاته، فلا يقع في هذا الكون شيء إلا لحكمة يعلمها سبحانه، سواء أدركها العباد أم خفيت عليهم، ومن هذا المنطلق جاءت معجزات الأنبياء -عليهم السلام- جزءًا من النظام الرباني المحكم الذي يهدف إلى هداية الخلق وإقامة الحجة عليهم، ولم تكن خوارق للعادات يقصد بها مجرد إظهار القدرة أو إبهار الأبصار، بل كانت وسائل دعوية تتناسب مع طبيعة كل أمة، وتراعي أحوالها الفكرية والاجتماعية، وتؤدي الغاية التي من أجلها أُرسلت الرسل، وهي دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، ومن ثم فإن دراسة الحكمة في عرض المعجزات في القرآن الكريم يعد مدخلًا مهمًا لفهم المنهج القرآني في الجمع بين إقامة البرهان وتحقيق الهداية.

وقد دلَّ القرآن الكريم على أن إرسال الرسل مقرون بالحكمة الإلهية، وأن تأييدهم بالمعجزات ليس أمرًا اعتباطيًا، وإنما يخضع لسنن ربانية تحقق المقصد من الرسالة. قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ

ISSN : 2410-1818

﴿ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ سورة النساء الآية:(165) والمعنى أن إرسالهم إزاحة للعلة وتتميم لإلزام الحجة لئلا يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من الغفلة ويعلمنا ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ في العقاب على الإنكار ﴿ حَكِيمًا ﴾ في بعث الرسل للإنذار"[1]، وقد ختمت الآية باسمي الله تعالى (العزيز الحكيم)، وفي ذلك إشارة دقيقة إلى أن إرسال الرسل وما أيدهم الله به من الآيات قائم على الحكمة البالغة، فليس المقصود مجرد إظهار القدرة، وإنما إزالة المعاذير، وقطع حجج المكذبين، وفتح باب الإيمان أمام من أراد الحق.

وقوله ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ "، يقول: "أرسلت رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين، لئلا يحتجّ من كفر بي وعبد الأنداد من دوني، أو ضل عن سبيلي بأن يقول إن أردتُ إلا عقابه.

ولا يقف الأمر عند مجرد إقامة الحجة، بل إن القرآن الكريم يربط المعجزة دائمًا بتحقيق الهداية، فالمعجزة ليست غاية مستقلة، وإنما وسيلة إلى الإيمان، ولذلك لم يجعل القرآن كثرة الآيات سببًا حتميًا للإيمان، وإنما جعل الانتفاع بها مرتبطًا بسلامة القلب واستعداده لقبول الحق، قال تعالى: ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، يقول جل ثناؤه: وما تغني الحجج والعبر والرسل المنذرة، عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وسبق منهم العناد والإصرار على الكفر، لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدِّقون به، ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ سورة يونس الآية:(97).

فالآية تقرر سنة قرآنية عظيمة، وهي أن المعجزة لا تنشئ الإيمان في قلب أغلقه صاحبه بالكبر والعناد، وإنما تزيد المؤمن يقينًا، وتقيم الحجة على المعاند، وعدم إيمان هؤلاء ليس لقصور الدليل، وإنما لفساد القابل؛ لأن الدليل متى تم، ولم يحصل الإيمان، دلَّ ذلك على أن المانع قائم في نفس المكلف لا في البرهان نفسه.

ومن مظاهر الحكمة الإلهية أن كل رسول أُيِّد بمعجزة تناسب حال قومه، وما اشتهروا به من العلوم أو الصناعات أو المعتقدات، حتى تكون أبلغ في إقامة الحجة عليهم. ومع ذلك لم يكن للآيات دور في تغيير ميزان الإيمان والكفر في تلك الأمم فقد بعث الله موسى عليه السلام في قوم شاع بينهم السحر، فجاءت معجزته من جنس ما برعوا فيه، ولكنها تجاوزت حدود السحر إلى الحقيقة التي يعجز عنها البشر، قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ سورة الأعراف الآية:(107).

(1) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـ)، (1/ 417).

ISSN : 2410-1818

ولم يكن اختيار هذه المعجزة أمرًا عارضًا، بل كان من تمام الحكمة؛ إذ أدرك السحرة ـ وهم أهل الاختصاص ـ أن ما جاء به موسى ليس من جنس صناعتهم، فسجدوا لله رب العالمين، وأعلنوا إيمانهم في موقف يدل على أن المعجزة إذا وافقت محل التحدي كانت أبلغ في تحقيق الهداية.

وكذلك أُرسل عيسى عليه السلام في زمن ازدهر فيه الطب، فأيده الله بمعجزات تتجاوز قدرة الأطباء، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، قال تعالى: ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾سورة آل عمران الآية:(49)، أي "وأشفي الأكمه الذي ولدته أُمه أعمى، فيصير بصيرا. وأشفي مَنْ بجلده برص، وهو بياض يخالف لون سائر الجلد، وهاتان العلتان أعجزتا الأطباءَ. ولهذا أراهم الله المعجزة على يد عيسى من جنس الطب، كما أرى قوم موسى المعجزة بالعصا واليد البيضاء، حيث كان الغالب عليهم السحر، وأرى العرب معجزة القرآن. حيث كان الغالب عليهم في عصر الرسول: الفصاحة والبلاغة، والاقتصار على هذين المرضين، لا ينفي قدرته على شفاء غيرهما بإذن الله. وكما كان يقدر على شفاء المرضى، كان يحي الموتى بإذن الله، وفي كل هذه المعجزات كان يلجأ إلى الله ويدعوه، فيحقق الله دعاءَه، دون ممارسة الوسائل الطبية"[1]

فكانت هذه المعجزات مناسبة لواقع قومه، وأقوى في إلزامهم بالحجة؛ لأنهم يعلمون أن هذه الأفعال خارجة عن حدود الأسباب البشرية. أما خاتم الأنبياء محمد ﷺ فقد أيده الله بالقرآن الكريم، وهو معجزة عقلية وبيانية باقية، تتحدى الإنس والجن في كل عصر، قال تعالى :﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ سورة الإسراء الآية:(88).

"فلما عجزوا عن معارضة كل القرآن أتبعه بالتحدي بعشر سور من القرآن فقال:(فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ)، فلما عجزوا عنه أتبعه بالتحدي بسورة واحدة فقال:(فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ)، فلما عجزوا أتبعه بالتحدي بآية فقال: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ)، فلما عجزوا عنه مع توافر الدواعي ظهر كونه معجزاً باهراً، وبرهاناً قاهراً"[2]، ويظهر من هذا التنوع أن الحكمة اقتضت اختلاف المعجزات باختلاف البيئات والأقوام، مع اتحاد المقصد، وهو إقامة الحجة وتحقيق الهداية، ومن أعظم مظاهر الحكمة كذلك أن الله تعالى لم يجب جميع مطالب المكذبين فيما اقترحوه من الآيات، مع قدرته سبحانه على ذلك؛ لأن طلبهم لم يكن صادرًا عن رغبة في الوصول إلى الحق، وإنما كان لونًا من ألوان المكابرة والتعنت. وقد سجل القرآن هذا المعنى في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ سورة الحجر الآيتين:(14-

(1) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (1/ 571).

(2) من أسرار التنزيل، المؤلف: الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى المتوفى سنة 606 هـ (ص: 27).

ISSN : 2410-1818

15)، "والمعنى أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد: أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك"[1].

فالمشكلة لم تكن في قلة الأدلة، وإنما في إصرار القوم على التكذيب، ولذلك لم تقتض الحكمة الإلهية الاستجابة لكل مقترحاتهم؛ لأن ذلك لا يحقق المقصود من الرسالة، بل قد يكون سببًا في تعجيل العذاب إذا استمروا في التكذيب بعد نزول الآية المقترحة، كما جرت سنة الله في الأمم السابقة.

من خلال ما سبق يمكن القول:

1- إن عرض المعجزات لم يكن منفصلًا عن الدعوة إلى التوحيد، وإنما جاءت كل معجزة في سياق يرسخ العقيدة، ويوقظ الفطرة، ويحث على التفكر، ويبين عاقبة الإيمان والكفر، حتى أصبحت المعجزة في القرآن جزءًا من البناء العقدي والتربوي للأمة، لا مجرد خبر تاريخي أو حادثة خارقة للعادة. وهذا يدل على أن القرآن لا ينظر إلى المعجزة بوصفها غاية في ذاتها، وإنما باعتبارها وسيلة لتحقيق المقصد الأعظم، وهو هداية الإنسان بعد قيام البرهان عليه.

2- إن الحكمة تمثل الإطار الحاكم لعرض معجزات الأنبياء في القرآن الكريم، وأن هذه المعجزات لم تأت لإلجاء الناس إلى الإيمان أو لإبهارهم بالخوارق، وإنما جاءت وفق منهج إلهي يحقق التوازن بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية .كما ظهر أن تنوع المعجزات، ومناسبتها لأحوال الأقوام، وعدم الاستجابة لكل مقترحات المكذبين، وربطها دائمًا بدعوة التوحيد؛ كلها شواهد على أن القرآن يعرض المعجزة باعتبارها وسيلة إصلاح وبناء، لا مجرد دليل على صدق النبوة. ومن ثم فإن الحكمة في عرض المعجزات تؤكد أن الإيمان المطلوب في المنظور القرآني هو الإيمان القائم على الاقتناع والاختيار بعد وضوح الدليل، لا الإيمان الناتج عن الإكراه أو الانبهار المؤقت، وهو ما ينسجم مع المقصد الكلي للرسالات السماوية، ويبرز جانبًا مهمًا من منهج القرآن في إقامة الحجة وتحقيق الهداية.

المطلب الثاني: التدرج في إقامة الحجة:

اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون دعوة الأنبياء -عليهم السلام- قائمة على منهجٍ رباني يجمع بين وضوح الدليل، وإمهال المخاطبين، ومراعاة استعدادهم النفسي والعقلي لقبول الحق، فلم يكن المقصود من إرسال الرسل مجرد إلزام الناس بالإيمان عن طريق إظهار الخوارق، وإنما كان المقصود الأعظم نقلهم من ظلمات الجهل إلى نور الهداية عن طريق بناء الحجة بناءً متدرجًا، حتى تبلغ الغاية في البيان، ولا يبقى لمكذب عذر يحتج به أمام الله تعالى. ومن هنا كان التدرج في إقامة الحجة سنة قرآنية مطردة في دعوات الأنبياء جميعًا، وهو مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية بالخلق؛ إذ لم يجعل الله تعالى

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (2/ 573).

ISSN : 2410-1818

أول ما يواجه به المكذبين هو العقوبة أو الآية القاهرة، وإنما بدأ بدعوتهم إلى النظر والتفكر، ثم أقام عليهم البراهين العقلية، ثم أيَّد رسله بالمعجزات، ثم أمهلهم بعد ظهورها، فإن أصروا على التكذيب بعد استيفاء جميع وسائل البيان استحقوا العقوبة، قال تعالى:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ سورة الإسراء الآية:(15).أي: "لا يعذب قوما بالاستئصال حتى يحتج عليهم بالرسل"[1].

فالله تعالى لا يؤاخذ عباده حتى تقوم عليهم الحجة قيامًا تامًا، وهو أصل كلي يحكم جميع قصص الأنبياء في القرآن الكريم.

ويشير ابن عاشور إلى أن المعجزة في المنهج القرآني ليست أصل الدعوة، وإنما هي وسيلة لتأييد الدعوة بعد أن يكون الرسول قد استنفد وسائل البيان والإرشاد، حتى يظهر أن امتناع المكذبين عن الإيمان لم يكن لخفاء الحق، وإنما لفساد القصد وإيثار الهوى، فقال - رحمه الله - "والإصغاء لكل صاحب دعوة، أمر يحمل كل من دعاه الرسول إلى الدين على أن يستمع لكلامه، ويتلقى دعوته وتحديه ومعجزته، فلا يشعر إلا وقد سلكت دعوته إلى نفس المدعو، فحركت فيه داعية النظر، فهو ينجذب إلى تلقي الدعوة، رويدا رويدا، حتى يجد نفسه قد وعاها وعلمها علما لا يستطيع بعده أن يقول: إني لا أنظر المعجزة، أو لا أصغي إلى الدعوة. فإن هو أعرض بعد ذلك فقد اختار العمى على الهدى، فكان مؤاخذا، فلو قدرنا أحدا مر برسول يدعو فشغله شاغل عن تعرف أمره والإصغاء لكلامه والنظر في أعماله، لسلمنا أنه لا يكون مخاطبا، وأن هذا الواحد وأمثاله إذا أفحم الرسول لا تتعطل الرسالة، ولكنه خسر هديه، وسفه نفسه"[2]

ويظهر هذا المنهج بجلاء في دعوة موسى عليه السلام إلى فرعون؛ فقد بدأ الخطاب الإلهي بتوجيه موسى وأخيه هارون إلى استعمال الرفق واللين، فقال سبحانه: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ طه الآيتان: (43، 44) "وهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ كان فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ وَمُوسَى صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يُخَاطِبَ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمُلَاطَفَةِ وَاللِّينِ"[3]، فأمرهما الله "بدعوة فرعون بكلام رقيق لين سهل، ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ وأنجح، لما في ذلك من التأثير في الإجابة، ذلك أن الكلام الذي فيه شدة وخشونة بادئ ذي بدء من أعظم أسباب النفرة، وعدم الاستجابة، لا سيما إذا كان المدعو من الكبراء الذين تغلب عليهم

(1) تفسير القرآن العزيز، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنين المالكي (المتوفى: 399هـ) (3/ 15).

(2) التحرير والتنوير (6/ 43).

(3) تفسير ابن كثير - (5/ 260).

ISSN : 2410-1818

صفة الكبر والتجبّر"[1]، وقد أثارت هذه الآية اهتمام المفسرين؛ إذ كيف يؤمر الرسول باللين مع من بلغ الغاية في الطغيان؟ وقد أجاب الرازي بأن المقصود إظهار عدل الله تعالى ورحمته، وأنه لا يغلق باب الهداية أمام أحد، بل يبدأ بدعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى إذا أعرض بعد البيان قامت عليه الحجة من جميع وجوهها[2].

وهذا يدل على أن أول مراحل إقامة الحجة لم تكن المعجزة، وإنما الكلمة، لأن الكلمة تخاطب العقل والقلب معًا، أما المعجزة فإنها تؤيد ما سبق تقريره، ولا تنشئ أصل الدعوة.

ثم ينتقل السياق القرآني إلى مرحلة ثانية، وهي إقامة البرهان العقدي، حيث قال موسى عليه السلام ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾سورة طه الآية:(47).، أي: "أرسلنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذّبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة"[3]، ثم دار الحوار حول حقيقة الربوبية، فقال فرعون : ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ سورة طه الآية:(49).

فأجابه موسى ببيان صفات الله تعالى وأفعاله في الخلق والتدبير، ولم يبادر بإظهار العصا أو اليد البيضاء، وإنما قدم البرهان العقدي أولًا. وهذا من دقائق النظم القرآني، لأن إقامة البرهان النظري مقدمة على إقامة البرهان الحسي، إذ إن العقل هو محل التكليف، فإذا قامت عليه الحجة ثم أيدت بالمعجزة كان ذلك أبلغ في إلزام الخصم وإظهار عناده.

ولما بلغ الحوار غايته، وانتقل فرعون من المناقشة إلى التحدي، قال: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة الأعراف الآية:(106).، عندئذٍ فقط أُمر موسى بإظهار المعجزة، قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾سورة الأعراف الآيتين:(107-108)، وهذا الترتيب يكشف عن حقيقة منهجية مهمة، وهي أن المعجزة جاءت بعد استنفاد وسائل الحوار والإقناع، لا قبلها، وهذا من سنن الله - عزوجل-؛ لأن الله تعالى جرى في سنته على إقامة الحجة تدريجًا، حتى لا يدعي المكذب أنه أُكره على الإيمان دون أن يُمهل أو يُبيَّن له الحق.

ولا يقف التدرج عند هذا الحد، بل إن القرآن يصور استمرار هذا المنهج حتى بعد ظهور المعجزة؛ إذ لم يعجل الله فرعون بالعقوبة بعد تكذيبه للعصا واليد، وإنما أرسل عليه آيات متتابعة، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ سورة الأعراف

(1) التدرج في دعوة النبي ﷺ – إبراهيم بن عبد الله المطلق – (صـ: 110).

(2) ينظر: تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . العلمية (22/ 42).

(3) تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر (18/ 315).

ISSN : 2410-1818

الآية:(130)، أي الجوع والقحط عاما بعد عام فالسنون لأهل البوادي ونقص من الثمرات لأهل القرى"[1]. فالآية تشير إلى مرحلة جديدة في إقامة الحجة، وهي الابتلاء، وقد عللها القرآن بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، وهو تعليل يكشف أن المقصود من هذه الآيات لم يكن التعذيب في ذاته، وإنما حمل القوم على مراجعة أنفسهم والرجوع إلى الحق، ثم يواصل القرآن تصوير هذا التدرج في إقامة الحجة من خلال إرسال الآيات المفصلة على فرعون وقومه، فقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾سورة الأعراف الآية:(133)، "فأنزلنا عليهم هذه المصائب والنكبات، حال كونها آيات بينات على صدق رسالة عبدنا موسى بأن توعدهم بها قبل وقوع كل واحدة منها تفصيلا لا إجمالا؛ لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل التأويل بأنها وقعت بأسباب لها لا دخل لرسالته فيها - فاستكبروا عن الإيمان به استكبارا، مع اعتقاد صحة رسالته، وصدق دعوته باطنا، وكانوا قوما راسخين في الإجرام والذنوب مصرين عليها فلا يهون عليهم تركها"[2].

ومن اللافت للنظر أن القرآن عقب على هذه الآيات بقوله تعالى:﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ فجعل سبب استمرار التكذيب هو الاستكبار، لا غموض الدليل أو ضعف الحجة. وفي ذلك دلالة على أن كثرة المعجزات لا تنشئ الإيمان في القلب الذي أفسده الكبر والهوى، وإنما تزيده عنادًا إذا لم يقترن ذلك باستعداد داخلي لقبول الحق، ومن هنا يتبين أن التدرج في إقامة الحجة لا يعني أن زيادة الآيات تؤدي بالضرورة إلى زيادة الإيمان، وإنما تعني استكمال أسباب الهداية حتى لا يبقى للمعاند حجة يحتج بها يوم القيامة.

ولا يقتصر هذا المنهج على دعوة موسى -عليه السلام-، بل يتكرر في قصة نوح -عليه السلام-، التي تعد من أوضح النماذج القرآنية في بيان سنة التدرج في إقامة الحجة وكذلك غيره من الأنبياء عليهم السلام.

من خلال ما سبق نستنتج ما يلي:

1- إن التدرج لم يكن مقصورًا على المعجزات، بل شمل أساليب الدعوة نفسها؛ فقد تنقل نوح عليه السلام بين الدعوة الفردية والجماعية، والسرية والجهرية، والترغيب والترهيب، ولم يترك وسيلة مشروعة إلا سلكها قبل أن يدعو على قومه. ولذلك فهذه الآيات تمثل غاية الاجتهاد في إقامة الحجة، إذ لم يبق نوح سبيلًا من سبل البيان إلا استعمله، حتى انقطعت جميع أعذار قومه.

(1) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير - (14/ 344).

(2) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا (9/ 78).

ISSN : 2410-1818

2-إن التدرج في إقامة الحجة يمثل سنة قرآنية عامة، لا تختص بنبي دون آخر، وأن المعجزات لم تكن الوسيلة الوحيدة في هذا التدرج، بل جاءت ضمن منظومة متكاملة تبدأ بالحوار، ثم البيان، ثم البرهان، ثم المعجزة، ثم الإمهال، ثم العقوبة عند الإصرار على التكذيب، وهذا الترتيب يكشف أن القرآن يجعل الهداية غايةً أولى، ويجعل العقوبة آخر المراحل بعد استنفاد كل أسباب الرحمة والبيان، وهو ما يبرز جانبًا من الإعجاز التشريعي والتربوي في منهج القرآن في دعوة الأمم.

3- إن التدرج في إقامة الحجة يمثل سنةً إلهية مطردة، قامت عليها دعوات الرسل جميعًا، ولم يكن مجرد أسلوب دعوي اقتضته ظروف بعض الأقوام دون غيرهم، فقد كشف القرآن الكريم أن الله تعالى لم يبدأ دعوة الأمم بإظهار المعجزات الخارقة، وإنما سبق ذلك توجيه الأنبياء إلى مخاطبة العقول، وإحياء الفطرة، وتصحيح التصورات العقدية، وإقامة الأدلة العقلية والكونية، ثم جاءت المعجزات مؤيدةً لهذه الدعوة ومثبتةً لصدق الرسالة، لا منشئةً لها ابتداءً، وهذا يؤكد أن الحجة في المنهج القرآني تقوم على تكامل وسائل البيان، بحيث تؤدي كل مرحلة وظيفةً محددة تمهد لما بعدها حتى تبلغ الغاية في الوضوح والبيان.

4- إن التدرج لم يقتصر على ترتيب ظهور المعجزات، وإنما شمل جميع عناصر العملية الدعوية؛ فتدرج الأنبياء في أساليب الخطاب، وانتقلوا بين الدعوة السرية والجهرية، والترغيب والترهيب، والحوار العقلي، والاستدلال بالآيات الكونية، ثم التأييد بالمعجزات، ثم الإمهال بعد ظهورها، ولم تنتقل الدعوة إلى مرحلة العقوبة إلا بعد استنفاد جميع وسائل الهداية. وهذا يكشف عن أن العقوبة في المنهج القرآني ليست مقصدًا أوليًا، وإنما هي المرحلة الأخيرة التي تترتب على الإصرار على التكذيب بعد اكتمال البيان، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ سورة الإسراء الآية:(15).

5- إن القرآن الكريم يربط بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية ربطًا وثيقًا؛ فإقامة الحجة ليست غاية مستقلة، وإنما وسيلة لتحقيق الهداية، ولهذا جاء التدرج موافقًا لطبائع النفوس البشرية التي تنتقل من مرحلة إلى أخرى في إدراك الحق وقبوله. فإذا انتفت قابلية النفس للهداية بسبب الكبر أو الحسد أو التقليد الأعمى، لم تعد المشكلة في نقص الأدلة، وإنما في فساد القابل، وهو ما قرره القرآن الكريم في مواضع متعددة، منها قوله تعالى﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ سورة يونس:(96-97).

6- إن التدرج في إقامة الحجة يعد أحد أبرز المظاهر الدالة على الحكمة الإلهية في عرض معجزات الأنبياء في القرآن الكريم، إذ يجمع بين كمال البيان، وعدل الله تعالى في المؤاخذة، ورحمته بعباده، ويؤكد أن المعجزات لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما جاءت ضمن منهج قرآني متكامل يهدف إلى ترسيخ الإيمان عن اقتناع واختيار، وإزالة كل شبهة يمكن أن يتذرع بها المكذبون، وهو ما ينسجم مع المقصد الرئيس لهذا البحث، المتمثل في بيان دور المعجزات في إقامة الحجة وتحقيق الهداية.

ISSN : 2410-1818

المطلب الثالث: مخاطبة القلب والعقل بالآيات:

إن من أبرز الخصائص المنهجية التي امتاز بها القرآن الكريم في عرضه لمعجزات الأنبياء أنه لم يجعلها مجرد براهين عقلية تقصد إلزام الخصم وإفحامه، ولم يحصر أثرها في إثارة المشاعر والانفعالات الوجدانية، وإنما جمع في بنائه القرآني بين خطاب العقل الذي يقوم على البرهان والنظر والاستدلال، وخطاب القلب الذي يقوم على التأثر والخشية والإنابة، وهذا التوازن يمثل أحد أسرار نجاح المنهج القرآني في تحقيق الهداية؛ إذ إن الإنسان لا يتحرك بمجرد العلم، كما أنه لا يستقيم بمجرد العاطفة، وإنما تتحقق الهداية الكاملة إذا استجاب العقل للبرهان، وخضع القلب للحق. ومن ثم جاءت معجزات الأنبياء في القرآن موجهة إلى الإنسان كله، لا إلى جانب واحد من جوانب شخصيته.

وقد أكثر القرآن من دعوة الإنسان إلى إعمال عقله عند عرض الآيات والمعجزات، فجعل النظر والتفكر طريقًا إلى الإيمان، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾سورة يونس الآية:(101) أي: انظروا بالتفكر والاعتبار مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ من الآيات والعبر التي تدل على وحدانية الله تعالى ونفاذ قدرته، قال ابن عباس: أما آيات السموات: فالشمس والقمر والنجوم، وأما آيات الأرض: فالجبال والشجر والبحار وسائر الآيات، وهي الأنهار والثمار والأشجار، وهذا قول عامة المفسرين"[1]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ سورة النساء الآية:(82)، أي: "ألا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات"[2]،وليس المقصود من هذا النظر مجرد التأمل العقلي المجرد، وإنما الوصول إلى اليقين الذي يحمل صاحبه على الإيمان والعمل. ولذلك يلاحظ أن القرآن كثيرًا ما يعقب عرض المعجزات بقوله: ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾، أو ﴿لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أو ﴿لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾، في إشارة إلى أن الانتفاع بالآيات مشروط بحضور العقل، واستعداده للنظر الصحيح.

فالقرآن الكريم لا يطالب الإنسان بالإيمان قبل إقامة البرهان، وإنما يدعوه أولًا إلى النظر الصحيح؛ لأن العقل هو آلة التكليف، وبه يتميز الإنسان عن غيره، فإذا ثبتت النبوة بالبراهين العقلية جاءت المعجزة مؤكدة لذلك، لا بديلًا عنه. ولهذا كان الاحتجاج العقلي في القرآن سابقًا في كثير من المواضع على ذكر المعجزة الحسية، كما في استدلال موسى عليه السلام على ربوبية الله قبل إظهار العصا واليد البيضاء.

غير أن القرآن ـ في الوقت نفسه ـ لم يجعل الهداية ثمرةً للبرهان العقلي وحده، بل قرر أن القلب هو محل قبول الحق أو رده، ولذلك تكرر الحديث عن القلوب في سياق الإيمان والكفر أكثر من الحديث

(1) التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ)، (11/ 327).

(2) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)، (8/ 99).

ISSN : 2410-1818

عن العقول، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ سورة الحج الآية:(46)، وتكشف هذه الآية عن حقيقة دقيقة، وهي أن العجز عن إدراك الحق ليس ناشئًا من نقص الأدلة، وإنما من فساد القلب الذي يعطل أثر العقل، ولذلك قال ابن عاشور: إن القلب في الاستعمال القرآني هو مركز الإدراك والإرادة معًا، فإذا فسد لم ينتفع صاحبه بأوضح البراهين.

ومن هنا يظهر أن القرآن لا ينسب التكذيب بالمعجزات إلى قصور البرهان، وإنما إلى أمراض القلوب؛ كالاستكبار، والحسد، وحب الدنيا، والخوف على السلطان، وهي الأسباب التي سبق بيانها في المبحث الأول. وهذا الترابط بين مباحث البحث يؤكد أن المشكلة لم تكن في المعجزات، وإنما في القابلية النفسية لتلقيها. ولذلك قال تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ سورة ق الآية:(37) "يعني بذلك القلبَ: القلبَ الحيّ"[1].

وقد فسر الطبري القلب هنا بالقلب الحي الذي يجتمع فيه الفهم والتأثر، فلا يقتصر على الإدراك الذهني، بل يمتد إلى الانقياد العملي. وهذا الفهم ينسجم مع السياق القرآني الذي يجعل الذكرى نافعة لمن جمع بين سلامة العقل وحياة القلب.

ويتجلى هذا المنهج بوضوح في قصة سحرة فرعون؛ فإنهم كانوا أول من أدرك بعقولهم أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من جنس السحر الذي أتقنوه، فلما استقر اليقين في عقولهم، انتقل أثره مباشرة إلى قلوبهم، فسجدوا لله تعالى دون تردد، وقالوا﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾سورة الأعراف الآية:(121). "ووقع السحرة سجداً قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون لو كان هذا ساحراً ما غلبنا"[2]

ولم يكن سجودهم نتيجة انفعال عاطفي مجرد، وإنما ثمرة يقين عقلي تحول إلى خشوع قلبي، ولذلك ثبتوا على إيمانهم رغم تهديد فرعون لهم بالقتل والصلب، وهذا النموذج يكشف أن القرآن يجعل الهداية ثمرةً لاجتماع نور العقل مع حياة القلب، فإذا انفصل أحدهما عن الآخر لم يتحقق الإيمان الكامل.

كما يعرض القرآن نموذجًا آخر تمثل في فرعون وقومه، الذين شاهدوا المعجزات مشاهدة مباشرة، وأيقنت بها عقولهم، ولكنهم لم يخضعوا لها بقلوبهم، قال تعالى :﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ سورة النمل الآية:(14)، أي: "تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحرا، ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى. وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين"[3]،

(1) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (22/ 373).

(2) تفسير ابن كثير / دار الفكر (2/ 290).

(3) الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي (13/ 163) .

ISSN : 2410-1818

وقد عدَّ المفسرون هذه الآية من أصرح الأدلة على أن المعرفة وحدها لا تكفي لتحقيق الإيمان، إذ قد يعلم الإنسان صدق الحق، ثم يمنعه الكبر أو الهوى من قبوله.

من خلال ما سبق نستنتج ما يلي:

1- إن المنهج القرآني في عرض معجزات الأنبياء لا يخاطب العقل منفردًا ولا القلب منفردًا، وإنما يجمع بينهما في خطاب واحد؛ فيقيم البرهان للعقل، ويوقظ القلب بالموعظة، ويذكر بالآخرة، ويعرض مصارع المكذبين، ويبشر المؤمنين، حتى تتكامل دوافع الهداية في النفس الإنسانية. وهذا التكامل هو الذي يفسر سر تأثير القرآن في النفوس المؤمنة، وعجز المكذبين عن الانتفاع بالمعجزات رغم وضوحها، لأن الخلل لم يكن في قوة الدليل، وإنما في فساد القلب الذي يتلقى ذلك الدليل.

2- إن القرآن الكريم انتهج في عرض معجزات الأنبياء منهجًا متكاملًا يقوم على الجمع بين مخاطبة العقل بالحجة والبرهان، ومخاطبة القلب بالموعظة والتذكير، فلم يجعل الهداية أثرًا للاستدلال العقلي المجرد، ولا نتيجة للتأثر الوجداني وحده، وإنما ثمرةً لاجتماعهما.

3- إن القرآن يحمّل القلب مسؤولية قبول الحق أو رده، ولذلك نسب التكذيب إلى أمراض القلوب أكثر من نسبته إلى ضعف الأدلة، ومن ثم فإن معجزات الأنبياء لم تكن مجرد وسائل لإثبات النبوة، وإنما كانت أدوات تربوية وإيمانية تخاطب الإنسان في جميع أبعاده، وهو ما يبرز جانبًا من الإعجاز المنهجي في القرآن الكريم، ويؤكد أن المقصد النهائي من المعجزات هو تحقيق الهداية بعد اكتمال إقامة الحجة، لا مجرد إلزام الخصم أو إظهار القدرة الإلهية.

4- إن القرآن الكريم قد عرض هذه المعجزات وفق منهج رباني متكامل، يقوم على تحقيق غايتين متلازمتين هما إقامة الحجة وتحقيق الهداية، ولم يجعل المعجزة غايةً في ذاتها، وإنما وسيلةً من وسائل الدعوة إلى الله تعالى. وقد ظهر من خلال هذا المبحث أن الحكمة الإلهية اقتضت أن ترتبط المعجزات بواقع الأقوام المخاطبين، وأن تأتي مناسبة لأحوالهم وما برعوا فيه، لتكون أبلغ في إلزامهم وإظهار عجزهم، وفي الوقت نفسه أقرب إلى حملهم على الإيمان والانقياد للحق.

5-إن القرآن الكريم لم يعتمد في إقامة الحجة على إظهار المعجزات ابتداءً، وإنما سبق ذلك بالحوار، والاستدلال، وإثارة التفكير، والدعوة إلى النظر في آيات الله الكونية والشرعية، ثم جاءت المعجزات مؤيدةً للرسالة بعد وضوح الدعوة، الأمر الذي يؤكد أن المنهج القرآني قائم على التدرج في بناء القناعة الإيمانية، لا على الإلزام القهري أو الإبهار الحسي المجرد، ولذلك لم تكن كثرة الآيات دليلًا على ضعف الحجة، وإنما كانت مظهرًا من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده، واستنفادًا لجميع أسباب الهداية قبل استحقاق العقوبة.

6- إن القرآن لم يقتصر في خطابه على العقل أو القلب منفردين، وإنما جمع بينهما في نسق متكامل؛ فخاطب العقل بالبراهين والأدلة، وخاطب القلب بالموعظة والتذكير والترغيب والترهيب، حتى تتحقق الهداية المنشودة. ومن ثم فإن عجز المكذبين عن الانتفاع بالمعجزات لم يكن ناشئًا عن قصور الأدلة أو

ISSN : 2410-1818

ضعف البراهين، وإنما كان نتيجة أمراض القلوب من استكبار وحسد وعناد واتباع للهوى، وهو ما يفسر إصرار كثير من الأمم على التكذيب رغم وضوح الآيات.

7- إن المعجزات في التصور القرآني ليست مجرد خوارق تثبت صدق الأنبياء عليهم السلام، وإنما هي جزء من منهج تربوي وإيماني متكامل، يقصد إلى بناء الإنسان بناءً عقديًا وأخلاقيًا، وإقامة الحجة عليه بأكمل صورها، حتى يكون إيمانه قائمًا على العلم واليقين والاختيار، لا على الإكراه أو الانفعال العابر، وهذا يؤكد أن العلاقة بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية ليست علاقة تعارض، وإنما علاقة تكامل؛ إذ إن إقامة الحجة هي الطريق إلى الهداية، والهداية هي الغاية الكبرى التي سيقت من أجلها معجزات الأنبياء في القرآن الكريم.

ISSN : 2410-1818

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تناول هذا البحث موضوع:(معجزات الأنبياء بين إقامة الحجة وتحقيق الهداية: دراسة تفسيرية في أسباب عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء)، من خلال دراسة الآيات القرآنية ذات الصلة، في إطار منهج التفسير الموضوعي، بقصد الوقوف على المنهج القرآني في عرض المعجزات، وبيان حكمتها، والكشف عن الأسباب التي حالت دون انتفاع كثير من الأمم بها، رغم وضوحها وقيامها مقام البرهان القاطع، وفي ختام هذه الدراسة يمكن إجمال أهم النتائج والتوصيات فيما يأتي:

أولاً: أهم النتائج:

1. أثبتت الدراسة أن معجزات الأنبياء في القرآن الكريم جاءت لتحقيق غايتين متلازمتين، هما إقامة الحجة وتحقيق الهداية، ولم تكن مجرد خوارق حسية يقصد بها إظهار القدرة الإلهية أو إثبات صدق الرسالة فحسب، بل جاءت ضمن منهج قرآني متكامل يرمي إلى هداية الإنسان وإقامة البرهان عليه.
2. كشفت الدراسة أن أسباب عدم استجابة المكذبين لمعجزات الأنبياء لم تكن راجعة إلى غموض الدليل أو ضعف البرهان، وإنما إلى أمراض القلوب والنفوس، كالكبر، والحسد، والتقليد الأعمى، والخوف على الجاه والمصالح الدنيوية، وهي أسباب تكررت في مواقف الأمم مع رسلهم.
3. أكدت الدراسة أن القرآن الكريم اعتمد منهج التدرج في إقامة الحجة، فبدأ بالحوار، والاستدلال العقلي، وإيقاظ الفطرة، ثم أيّد ذلك بالمعجزات، مع إمهال المكذبين وإتاحة الفرصة لهم للرجوع، مما يعكس كمال عدل الله تعالى ورحمته بعباده.
4. بينت الدراسة أن المنهج القرآني في عرض معجزات الأنبياء جمع بين مخاطبة العقل بالبرهان، والقلب بالموعظة والتذكير، بما يحقق التوازن في بناء الإيمان، ويؤكد أن الهداية ثمرة اجتماع الاقتناع العقلي مع الاستجابة القلبية.
5. أظهرت الدراسة أن اختلاف مواقف الناس من المعجزات لم يكن ناشئًا عن تفاوت قوة المعجزات أو وضوحها، وإنما عن تفاوت قابلية النفوس لقبول الحق؛ فالمعجزة تهدي من سلم قلبه، ولا تنفع من غلب عليه الهوى والاستكبار، ولو شاهد أعظم الآيات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ سورة يونس:(96- 97).
6. توصلت الدراسة إلى أن تنوع المعجزات، وتدرجها، وارتباطها بأحوال الأقوام المخاطبين، يمثل جانبًا من الإعجاز المنهجي في القرآن الكريم، ويكشف عن دقة المنهج الرباني في مراعاة طبائع البشر، وتحقيق مقاصد الدعوة، واستنفاد جميع أسباب الهداية قبل المؤاخذة والعقوبة.

ISSN : 2410-1818

7. توصلت الدراسة إلى أن المعجزات ضمن السلسلة الدعوية هي الحلقة الأخيرة والتي بعدها يتجلى بوضوح بعدها استحالة إيمان من أنكرها أو كفر بها ولذلك كانت النهايات متشابهة مع جميع الذين أنكروا المعجزات وهو العذاب الجماعي والهلاك المستأصل.
8. أبرزت الدراسة أن منهج التفسير الموضوعي يعد من أنسب المناهج العلمية للكشف عن المقاصد القرآنية في عرض معجزات الأنبياء، وإظهار وحدة بنائها، وترابط أهدافها، وبيان السنن الإلهية الحاكمة لعلاقة المعجزات بإقامة الحجة وتحقيق الهداية.

ثانياً: أبرز التوصيات:

1. توجيه مزيد من الدراسات الموضوعية إلى السنن القرآنية المتعلقة بالدعوة والهداية في قصص الأنبياء .
2. العناية بإبراز المقاصد التربوية والإيمانية للمعجزات في الدراسات التفسيرية المعاصرة .
3. الإفادة من المنهج القرآني في إقامة الحجة عند إعداد مناهج الدعوة والتعليم الشرعي .
4. تشجيع الدراسات المقارنة بين مناهج المفسرين في تفسير آيات المعجزات، وبيان أثرها في فهم المقاصد القرآنية.
5. العناية بإعداد دراسات تفسيرية موضوعية تُعنى بسنن الله في الهداية والإضلال في القرآن الكريم، وربطها بالواقع الدعوي المعاصر.

ISSN : 2410-1818

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم:

ثانيا: أهم المصادر والمراجع.

1. الاتقان في علوم القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، شهرته: السيوطي، المحقق: مركز الدراسات القرآنية، دار النشر: مجمع الملك فهد، البلد: السعودية، الطبعة: الأولى.
2. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ.
3. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري - (2/ 193)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة- الطبعة: الخامسة- 1424هـ/2003م - مصدر الكتاب: موقع مكتبة المدينة الرقمية http://www.raqamiya.org.
4. بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، دار النشر: دار الفكر - بيروت، تحقيق: د. محمود مطرجي.
5. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، الطبعة: 1419 هـ.
6. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: 1984 هـ.
7. التدرج في دعوة النبي ﷺ - إبراهيم بن عبد الله المطلق - وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف -والدعوة والإرشاد - مركز البحوث والدراسات الإسلامية - الطبعة: الأولى، 1417هـ.
8. التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف - علي علي صبح- المكتبة الأزهرية للتراث - الطبعة: الأولى: 1423 هـ- 2002م.
9. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
10. التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام

ISSN : 2410-1818

محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1430هـ.

11. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: 1354هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: 1990 م.
12. تفسير القرآن العزيز، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: 399هـ)، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2002م.
13. تفسير القرآن العظيم - تفسير ابن كثير - عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي - شهرته: ابن كثير تحقيق: مصطفى السيد محمد – محمد السيد رشاد – محمد فضل العجماوي – علي أحمد عبد الباقي - مؤسسة قرطبة – مكتبة أولاد الشيخ
14. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: 327هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - 1419 هـ.
15. تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.
16. تفسير المراغي - أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: 1371هـ) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الأولى، 1365 هـ - 1946 م
17. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف: د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ.
18. تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.
19. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولى، (1393 هـ = 1973 م).
20. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ -2000 م.

ISSN : 2410-1818

21. جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.
22. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري
23. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م.
24. دراسات في علوم القرآن الكريم، المؤلف: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، الطبعة: الثانية عشرة 1424هـ - 2003م.
25. الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة .: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية - (المتوفى: 751هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت بدون.
26. زهرة التفاسير، المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: 1394هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.
27. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث - د: علي محمد الصلابي- دار ابن كثير، بيروت الطبعة الثانية 2005 م.
28. صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ
29. عظات وعبر في قصص الأنبياء، سعيد عبد العظيم - دار الإيمان للنشر والتوزيع - الاسكندرية - 2000م
30. الفروق اللغوية، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.
31. في مناهل العرفان في علوم القرآن، المؤلف: محمد عبدالعظيم الزرقاني، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى، 1996.
32. قصص الأنبياء، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: مطبعة دار التأليف - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1388 هـ - 1968 م.

ISSN : 2410-1818

33. كتاب التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م.
34. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.
35. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المؤلف: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: 1094هـ)، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
36. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م.
37. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى(المتوفى: 711هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
38. لطائف الإشارات - عبد الكريم بن هوازن القشيرى - تحقيق: إبراهيم بسيونى - الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب القرن: الخامس بدون.
39. لطائف الإشارات = تفسير القشيري - عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ) - تحقيق: إبراهيم البسيوني -الهيئة المصرية العامة للكتاب- مصر - الطبعة: الثالثة.
40. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م.
41. مختار الصحاح، المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م.
42. مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ) -تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ مؤسسة الرسالة - الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.
43. معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، المؤلف: حسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة: الأولى، 2003 - 2008 م.
44. من أسرار التنزيل، المؤلف: الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى المتوفى سنة 606 هـ، دار النشر: دار المسلم ـ جمهورية مصر العربية، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.

ISSN : 2410-1818

45. موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين - الدكتور رفيق العجم - مكتبة لبنان ناشرون -1998

46. الوحي والإنسان - قراءة معرفية، المؤلف: محمد السيد الجليند، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة).

ISSN : 2410-1818

مجلــة الأندلس للعلوم الإنسانيـة والاجتماعيـة
مجلــة دوليـــة شهـريـــة علميـــة محكمـــة
الترقيـم الدولي الإلكتروني: ISSN:2410- 521X
الترقيـم الدولـي الورقـي :ISSN:2410- 1818
البريد الإلكتروني : journal@andalusuniv.net

المجلــة مفهرســة فــي المواقــع الآتيــة :

العام	2021	2022	2023	2024	2025
معامل أرسيف	0.2692	0.1954	0.3759	0.3068	0.5978
معامل التأثير العربي	1.60	1.73	1.25	1.55	1.59